صعاليك الصَّحافة

ـ ٢ ـ

وغاب شيخُنا أبو عثمان عند رئيس التَّحرير بعضَ ساعةً ، ثمَّ رجع تدورُ عيناه في جِحاظَيْهما، وقد اكفهرَّ وجهُه، وعبس كأنَّما يجري فيه الدَّم الأسود، لا الأحمر، وهو يكاد ينشقُّ من الغيظ ، وبعضهُ يغلي في بعضه كالماء على النَّار ؛ فما جلس حتَّى جاءت ذبابتان فوقعتا على كنَفيْ أنفه تُتِمَّان كآبة ، كآبة وجهه المشوَّه ، فكان منظرهما من عينيه السَّوداوين الجاحظتين منظرَ ذبابتين وُلدتا مِنْ ذبابتين .

وتركهما الرَّجل لشأنهما ، وسكن عنهما ؛ فقلت له : يا أبا عثمان ! هاتان ذبابتان ! ويقال : إنَّ الذُّباب يحمل العدوَى .

فضحك ضحكةَ المَغيظ ، وقال : إنَّ الذُّباب عندنا يخرجُ من المطبعة لا من الطَّبيعة . فأكثر القول في هذه الجرائد حشَرات من الألفاظ : منها ما يُستقذَر ، وما تنقلب له النَّفس ، وما فيه العدوَى ، وما فيه الضَّرر ، وما بدّ أن يعتاد الكاتب الصَّحافيُّ من الصَّبر على بعض القول مثلَ ما يعتاد الفقير من الصَّبر على بعض الحشرات في ثيابه . وقد يريده صاحب الجريدة ، أو رئيس التَّحرير عن أن يكتب كلاماً لو أعفاه منه ، وأراده على أن يجمع القمل ، والبراغيث من أهدام الفقراء والصَّعاليك بقدر ما يملأ مقالة ؛ كان أخفَّ عليه ، وأهون ، وكان ذلك أصرحَ في معنى الطَّلب ، والتَّكليف[1] .

وكيفما دار الأمر ؛ فإنَّ كثيراً من كلام الصُّحف لو مسخه الله شيئاً غير الحروف المطبعيَّة ؛ لطار كلُّه ذباباً على وجوه القرَّاء ! .

قلت : ولكنَّك يا أبا عثمان ! ذهبت مُتطلِّقاً إلى رئيس التَّحرير ورجعت متعقِّداً ، فما الذي أنكرت منه ؟ .

قال : « لو كان الأمر على ما يشتهيه الغَرِيْرُ[2] ، والجاهل بعواقب الأمور ؛

---

(١) هذه طريقة الجاحظ في الإغراق حين يتهكَّم . (ع) .

(٢) « الغرير » : الشاب الذي لا تجربة له .

لبطل النَّظرُ ، وما يشحذ عليه ، وما يدعو إليه ، ولتعطَّلت الأرواح من معانيها ، والعقول من ثمارها ، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها »[١] . هناك رجلٌ من هؤلاء المعنيِّين بالسِّياسة في هذا البلد . . . يريد أن يخلق في الحوادث غير معانيها ، ويربط بعضها إلى بعضٍ بأسبابٍ غير أسبابها ، ويخرج منها نتائج غير نتائجها ، ويلفِّق لها فنَّ المنطق رُقعاً ، كهذه الرُّقع في الثَّوب المفتوق ؛ ثمَّ لا يرضى إلا أن تكون بذلك ردّاً على جماعة خصومه وهي ردٌّ عليه ، وعلى جماعته ، ولا يرضى مع الرَّدِّ إلا أن يكون كالأعاصير تدفع مثل تيَّار البحر في المستنقع الرَّاكد .

ثمَّ لم يجدْ لها رئيسُ التَّحرير غيرَ عمِّك أبي عثمان في لطافة حسِّه ، وقوَّة طبعه ، وحسن بيانه ، واقتداره على المعنى ، وضدّه ، كأنَّ أبا عثمان ليس عنده ممَّن يحاسبون أنفسهم ، ولا من المميِّزين في الرأي ، ولا من المستدلِّين بالدَّليل ، ولا من النَّاظرين بالحجَّة ، وكأنَّ أبا عثمان هذا رجلٌ حُروفيٌّ . . . كحروف المطبعة : ترفع من طبقةٍ ، وتوضع في طبقة ، وتكون على ما شئت ، وأدنى حالاتها أن تمدَّ إليها ، فإذا هي في يدك .

وأنا امرؤٌ سيِّدٌ في نفسي ، وأنا رجلُ صدقٍ ، ولست كهؤلاء الَّذين لا يتأثَّمون ، ولا يتذمَّمون ؛ فإن خضتُ في مثل هذا انتقض طبعي ، وضعُفتِ استطاعتي ، وتبيَّن النَّقص فيما أكتب ، ونزلت في الجهتين ؛ فلا يطَّرد لي القول على ما يرجو ، ولا يستوي على ما أحبُّ ؛ فذهبت أناقضُه ، وأردُّ عليه ؛ فبُهِتَ ينظر إليَّ ، ويقلِّب عينيه في وجهي ، وكأنَّ الكاتب عنده خادمُ رأيه ، كخادم مطبخه ، وطعامه ، هذا مِنْ هذا !

ثمَّ قال لي : يا أبا عثمان ! إنِّي لأستحي أن أعنِّفك ؛ وبهذا القول لم يستمح أن يعنِّف أبا عثمان . . . ولهممتُ والله أن أنشده قول عبَّاس بن مرداس[٢] :

أَكُلَيْبُ . . ما لكَ كلَّ يومٍ ظالماً والظُّلمُ أَنْكَدُ وَجْهُهُ مَلْعُونُ

لولا أن ذكرتُ قول الآخر :

(١) هذه الجملة من كلام الجاحظ . (ع) .

(٢) ديوان عباس بن مرداس (١٥٦) .

وبيـــن تميـــمٍ غيـــرَ حَـــزِّ الغـــلاصـــمِ وما بين من لم يُعطِ سمعاً وطاعةً

وحزُّ الغلاصم و« قطع الدَّراهم » من قافيةٍ واحدةٍ . . . وقال سعيد بن أبي عرُوبة : « لأن يكون لي نصف وجهٍ ، ونصف لسانٍ على ما فيهما من قبح المنظر ، وعجز المخبر ؛ أحبُّ إليَّ من أن أكون ذا وجهين ، وذا لسانين ، وذا قولين مختلفين » . وقال أيوب السُّختياني . . .

وهمَّ شيخنا أن يمرَّ في الحفظ والرِّواية على طريقته ، فقلت : وقال رئيسُ التَّحرير . . ؟

فضحك ، وقال : أمَّا رئيس التَّحرير ، فيقول : إنَّ الخلابة[1] ، والمواربة ، وتقليب المنطق هي كلُّ البلاغة في الصَّحافة الحديثة ، لهي كقلب الأعيان في معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم ، فكما انقلبت العصا حيَّةً تَسْعَى ، وهي عصا ، هي من الخشب ، فكذلك تنقلب الحادثة في معجزات الصَّحافة ؛ إذا تعاطاها الكاتب البليغ بالفطنة العجيبة ، والمنطق الملوَّن ، والمعرفة بأساليب السِّياسة ؛ فتكون للتَّهويل ، وهي في ذاتها اطمئنانٌ ، وللتُّهمة ، وهي في نفسها براءةٌ ، وللجناية ، وهي في معناها سلامةٌ ، ولو نفخ الصَّحافيُّ الحاذق في قبضةٍ من التُّراب ؛ لاستطارت منها النَّار ، وارتفع لهبُها الأحمر في دخَّانها الأسود . قال : وإنَّ هذا المنطق الملوَّن في السِّياسة إنَّما هو إتقان الحيلة على أن يصدِّقك النَّاس ؛ فإنَّ العامَّة وأشباه العامَّة لا يصدِّقون الصِّدقَ لنفسه ، ولكن للغرض الَّذي يُساق له ؛ إذ كان مدار الأمر فيهم على الإيمان ، والتَّقديس ، فأذِقهم حلاوة الإيمان بالكذب ، فلن يعرفوه إلا صدقاً ، وفوق الصِّدق ، وهم من ذات أنفسهم يقيمون البراهين العجيبة ، ويساعدون بها مَنْ يكذب عليهم متى أحكم الكذب ؛ ليحقِّقوا لأنفسهم : أنَّهم بحثوا ، ونظروا ، ودقَّقوا .

ثمَّ قال أبو عثمان : ومعنى هذا كلِّه : أنَّ بعض دُور الصَّحافة لو كتبت عبارةً صريحةً للإعلان ؛ لكانت العبارة هكذا : سياسةٌ للبيع .

* * *

قلت : يا شيخنا ! فإنَّك هنا عندهم لتكتب كما يكتبون ، ومقالاتُ السِّياسة الكاذبة كرسائل الحبِّ الكاذب : تُقرأ فيها معانٍ لا تكتب ، ويكون في عبارتها حياءٌ ، وفي ضمنها طلبُ ما يُسْتَحى منه . والحوادث عندهم على حسب الأوقات ،

---

(١) « الخلابة » : الخداع .

فالأبيض أسود في اللَّيل ، والأسود أبيض بالنَّهار ؛ ألم تر إلى فلانٍ كيف يصنع ، وكيف لا يعجزه برهانٌ ، وكيف يخرِّج المعاني ؟ !

قال: بلى! نِعم الشَّاهد، هو وأمثاله! إنَّهم مصدَّقون حتَّى في تاريخ حفر زمزم.

قلت : وكيف ذلك ؟

قال: شهد رجل عند بعض القضاة على رجلٍ آخر، فأراد هذا أن يجرِّح شهادته.

فقال للقاضي : أتقبل منه وهو رجل يملك عشرين ألف دينارٍ ، ولم يحجَّ إلى بيت الله ؟ فقال الشَّاهد : بلى قد حججت !

قال الخصم : فاسأله أيُّها القاضي عن زمزم كيف هي ؟

قال الشَّاهد : لقد حججتُ قبل أن تحفر زمزم؛ فلم أرَها .

قال أبو عثمان : فهذه هي طريقة بعضهم فيما يزكِّي به نفسه : ينزلون إلى مثل هذا المعنى وإن ارتفعوا عن مثل هذا التَّعبير ؛ إذ كانت الحياة السِّياسيَّة جدلاً في الصُّحف لنفي النفي ، وإثبات المثبت ، لا عملاً يعملونه بِالنَّفي والإثبات ، ومتى استقلَّت هذه الأمَّة ، وجب تغيير هذه الصَّحافة ، وإكراهها على الصِّدق ، فلا يكون الشَّأن حينئذٍ في إطلاق الكلمة الصَّحافيَّة إلا مِنْ معناها الواقع .

والحياة المستقلَّة ذات قواعد ، وقوانين دقيقةٍ لا يُترخَّص فيها ما دام أساسها إيجاد القوَّة ، وحياطةُ القوَّة ، وأعمال القوَّة ، وما دامت طبيعتُها قائمةً على جعل أخلاق الشَّعب حاكمةً لا محكومةً ، وقد كان العمل السِّياسيُّ إلى الآن هو إيجاد الضَّعف ، وحياطة الضَّعف ، وبقاء الضَّعف ؛ فكانت قواعدنا في الحياة مغلوطةً ؛ ومن ثمَّ كان الخلق القويُّ الصَّحيح هو الشَّاذُّ النَّادر يظهر في الرجل بعد الرَّجل ، والفترة بعد الفترة ، وذلك هو السَّبب في أنَّ عندنا من الكلام المنافق أكثر من الحرِّ ، ومن الكاذب أكثر من الصَّادق ، ومن المماري أكثر من الصَّريح ؛ فلا جرم ارتفعت الألقاب فوق حقائقها ، وصارت نعوت المناصب وكلمات : « باشا ، وبك » من الكلام المقدَّس صحافياً .

يا لعبادِ الله ! يأتيهم اسمُ الأديب العظيم ، فلا يجدون له موضعاً في « محلِّيَّات الجريدة » ؛ ويأتيهم اسم الباشا ، أو البك ، أو صاحب المنصب الكبير فبماذا تتشرَّف « المحلِّيَّات » إلا به ؟ وهذا طبيعيٌّ ، ولكن في طبيعة النِّفاق ؛ وهذا

واجبٌ ، ولكن حين يكون الخضوع هو الواجب ؛ ولو أنَّ للأديب وزناً في ميزان الأمَّة ؛ لكان له مثل ذلك في ميزان الصَّحافة ، فأنت ترى : أنَّ الصَّحافة هنا هي صورةٌ من عاميَّة الشَّعب ليس غير . . ومن ذا الَّذي يصحِّح معنى الشَّرف العامل لهذه الأمَّة وتاريخها ؛ وأكثر الألقاب عندنا هي أغلاطٌ في معنى الشَّرف . . ؟

ثمَّ ضحك أبو عثمان ، وقال : زعموا : أنَّ ذبابةً وقعت في بارجةِ (أميرال)[1] إنجليزي أيَّام الحرب العظمى ، فرأت القائد العظيم وقد نشر بين يديه درْجاً من الورق وهو يخطِّط فيه رسماً من رسوم الحرب ، ونظرت ، فإذا هو يلقي النقطة بعد النقطة من المداد ، ويقول : هذه مدينة كذا ، وهذا حصن كذا ، وهذا ميدان كذا . قالوا : فسخرت منه الذُّبابة ، وقالت : ما أيسر هذا العمل ، وما أخفَّ ، وما أهونَ ! ثمَّ وقعت على صفحةٍ بيضاء ، وجعلت تلقي وَنِيمَها[2] هنا ، وهناك ، وتقول : هذه مدينةٌ ، وهذا حصنٌ .

* * *

والتفت الجاحظ كأنَّما توهَّم الجرس يُدقُّ . . فلمَّا لم يسمع شيئاً ؛ قال : لو أنَّني أصدرت صحيفةً يوميَّةً ؛ لسمَّيتها (الأكاذيب) فمهما أكذب على النَّاس ؛ فقد صدقتُ في الاسم ، ومهما أخطئ ؛ فلن أخطئ في وضع النِّفاق تحت عنوانه .

قال : ثُمَّ أخطُّ تحت اسم الجريدة ثلاثة أسطر بالخطِّ الثلث هذا نصُّها :

ما هي عزَّة الأذلاء ؟ هي الكذب الهازل .

ما هي قوَّة الضُّعفاء ؟ هي الكذب المكابر .

ما هي فضيلة الكذَّابين ؟ هي استمرار الكذب .

قال : ثمَّ لا يحرِّر في جريدتي إلا « صعاليك الصَّحافة » من أمثال الجاحظ ، ثُمَّ أكذب على أهل المال ، فأمجِّد الفقراء العامِّين ، وعلى رجال الشَّرف ، فأعظِّم العمَّال المساكين ، وعلى أصحاب الألقاب ، فأقدِّمَ الأدباء ، والمؤلِّفين؛ و . . .

ودُقَّ الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التَّحرير .

* * *

(١) « أميرال » : أي : أمير البحر .

(٢) « ونيم الذباب » : هو . . . أي : هذه النُّقط السُّود التي يُحدثها . (ع).